من رسائل الأب صفرونيوس

المَسِيحُ يَسْكُنُ فِينَا

بسبب محبته للخطاة

من رسائل الأب صفرونيوس

المَسِيحُ يَسْكُنُ فِينَا

بسبب محبته للخطاة

اسم الكتاب : المسيح يسكن فينا بسبب محبته للخطاة
المؤلف :من رسائل القديس صفرونيوس
الناشر :جذور للنشر – ت: ٢٧٧٩٦١٣٧
المطبعة :جي سي سنتر ١٤ ش محود حافظ – ميدان سفير – مصر الجديدة
الطبعة :الأولى أكتوبر ٢٠١٧

صفرونيوس خادم الرب يسوع المسيح والمشتاق إليكم بمحبة الرب واشتياقات الروح القدس. سلام ونعمة مخلصنا الصالح تكون معكم.

١- لماذا يسكن المسيح في قلوبنا؟ هو سؤال محبتكم الصحيح، أمَّا كيف يسكن، فهو ما يجيء في المرتبة الثانية.

يقول الرسول: «لكي يسكن المسيح بالإيمان في قلوبكم»، ولكنه قبل ذلك قال: «لكي يعطي بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن» (أف ٣: ١٦). ولأنه قال: «لكي» ϵϩⲣϵ فقد حدد لنا أن عطية الروح القدس هي سبب سكنى المسيح في قلوبنا. وقبل أن نقول: كيف؟ علينا أولاً أن نسأل: لماذا؟ لكن لا يجب أن نميِّز بين السكنى والحلول؛ لأن السكنى والحلول هما اللفظان الشائعان في الأسفار المقدسة. والحلول هو مُقدمة للسكنى، ومع ذلك فنحن لا نميِّز بين الاثنين؛ لأن الرسول يقول عن ربنا يسوع المسيح: "حلَّ فيه كل ملء اللاهوت جسدياً" (كو ٢: ٩). وعن السكنى قال الرب يسوع نفسه: «إليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» (يو ١٤: ٢٣)، أو «عنده نقيم»؛ لأن عطية الله لا تُدرَك ولا يحددها اللفظ، بل تحددها المحبة، ولذلك السبب نفسه قال الرسول: «لكي يعطي بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن»؛ لأننا لا نحتمل سكنى اللاهوت فينا، ولا يوجد في طبعنا الإنساني قوة أو قدرة روحية وجسدانية تجعلنا نتقبل سكنى الله فينا، أو حلول الروح القدس، بل ننال ثلاث عطايا من الرب يسوع نفسه لكي يسكن هو فينا ونسكن نحن فيه.

وأول هذه العطايا هي عطية المعرفة التي ننالها عندما تستنير قلوبنا ونميِّز عمل الله، وهي عطية الاستنارة التي تعطى لنا في سر المعمودية المقدسة؛ لأننا ننال

النور الإلهي لكي تقوى عقولنا وتدرك الخلاص الثمين الذي أعطاه الرب لنا.

والعطية الثانية هي عطية الشركة في جسد الرب، أي عندما نُحسب أعضاء في جسده الكنيسة، وهي تُوهب لنا في سري المعمودية والإفخارستيا، ولذلك يقول الرسول: «لأننا بروحٍ واحدٍ جميعنا أيضاً اعتمدنا إلى جسدٍ واحد» (١ كور ١٢: ١٣)، فأكَّد الرسول بذلك أن الانضمام إلى جسد الرب يسوع الكنيسة هو الذي يؤهلنا لأن ننال سكنى الرب بالروح القدس مع جميع المؤمنين.

والعطية الثالثة، وهي الأعظم، وهي التي لأجلها أُعطيت العطية الأولى والثانية، هي عطية البنوة، ولذلك السبب قال الرسول: «بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه صارخاً أبَّا أيها الآب» (غلا ٤: ٤). لأننا بسبب وساطة الرب يسوع المسيح رأس الخليقة الجديدة، ولأنه وحَّد مع ناسوته بنوته وأعاد خلق الإنسانية فيه حسب قول الرسول: «إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة» (٢ كور ٥: ١٧)؛ لأن الخليقة الجديدة هي الطبيعة الإنسانية التي فداها الرب، وهي الطبيعة الجديدة التي كُوِّنت بأُقنوم الروح القدس، وفي أُقنوم الابن، وبمسرة وصلاح الآب، ولذلك نالت «الأهلية» لأن يسكن الروح القدس فيها دون أن تحترق أو تصاب بعطبٍ لا شفاء منه؛ لأن الرب يسوع لم يأتِ لكي يميت، بل لكي يُحيي ويعطي لنا الحياة الجديدة التي لا موت فيها ولا فساد.

٢– ولأننا ذكرنا عطية البنوة كأساس لكل عطايا الله الآب، فإننا يجب أن نؤكد من جديد وفي كل مرة أن هذه البنوة هي بنوة الابن ربنا يسوع المسيح «البكر بين أخوةٍ كثيرين» (رو ٨: ٢٩)، ولكن بنوته التي نشترك فيها لا تتكاثر ولا تتعدد مهما كان عدد المؤمنين، بل هي بنوة واحدة لأن الطبيعة القديمة والخليقة الأولى تتكاثر بالولادة، وتتعدد حسب عمل قدرة الخالق، أمَّا الطبيعة الجديدة فهي تتكاثر بالاتحاد، وتتعدد حسب دعوة الله العليا الفائقة في يسوع المسيح. والاتحاد لا يحسب بالأرقام ولا يقدَّر بالمساحة أو المسافة أو الزمن،

فهذه كلها مقاييس الخليقة الأولى لأننا نقول عن مدينة معينة إن عدد سكانها عشرة آلاف ونحسبهم بالعدد. أمَّا عن سر المسيح، فإننا لا نحسب بالأرقام، بل نقول: «جسداً واحداً»؛ لأن الحياة الواحدة للجسد الواحد هي حياةٌ لا تحسب بالعدد، بل تحسب بالاتحاد، والاتحاد يقدَّر بالنعمة التي وصفها الرسول بأنها «غنية»، ويحسب بالغاية أو الهدف، وهو أن نكون في شركة مع الثالوث القدوس وبالثالوث القدوس لمجد الله الآب.

٣- نحن أبناء الله بالنعمة؛ لأن الرب يسوع جاء بهذه النعمة من عند الآب، ومن خلال وحدة جوهر اللاهوت غير المنقسم والذي هو ضد الانقسام. هو واحدٌ مع الآب حسب الجوهر، وهو متمايزٌ عن الآب لأنه ابن الآب الأزلي، ولذلك السبب عينه أي تمايز أُقنوم الآب عن أُقنوم الابن دون أن نسأل ودون أن نقول الأول والثاني؛ لأن الأعداد لا تعبِّر بالمرة عن جوهر الله، وحتى عندما نقول إن «الله واحد»، فإننا لا نعني الرقم واحد، بل نعني «الوحدة»، فصار بذلك تمايُز الابن عن الآب هو أساس تمايُز المؤمنين: كلٍ متمايز عن الآخر حسب كلمات التقوى الأُرثوذكسية للرسول عندما علَّمنا تمايُز أعضاء الجسد الواحد حسب سر المسيح (١كور١٢: ١١ - ١٢).

وإذا كنا نحن نتمايز كأعضاء الجسد الواحد، فإننا أيضاً نتمايز عن الابن، وهو تمايز النعمة؛ لأننا لسنا أبناء الآب بمساواةٍ تامة للابن حسب جوهر اللاهوت، بل نحن أبناء الآب بمساواةٍ تامة حسب غنى محبة الله الذي أحبنا بنفس المحبة التي يحب بها ابنه الوحيد دون أن يكون أيٌ منا هو الابن الوحيد، بل أبناء بالنعمة.

هنا ندرك صلاح الله الفائق الذي يحب المخلوقين من العدم بذات المحبة التي يحب بها ابنه، ولا يجعل الفرق والتمايز بين الابن الوحيد والمؤمنين سبباً لمحبةٍ أقل؛ لأن المحبة لا تُحسب بالكم ولا تقدَّر بالنوع حسب عملها وعطاياها وانسكابها

من الله، بل تُحسب بالكم والنوع عند البشر الخطاة، ولذلك السبب قال الرب يسوع المسيح: «ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو١٧: ٢٦)، وأيضاً: «أحببتهم كما أحببتني» (يو١٧: ٢٣). هكذا نحن فيه بسبب اتحاد الناسوت الذي يميِّزنا عن لاهوت الابن، وهو فينا بسبب محبة الآب لنا، أي ذات محبة الآب للابن. هنا تصرخ كل القوات السمائية بدهشةٍ لا تُوصَف لأن الذين هم من تراب الأرض صاروا محبوبين بمحبة أزلية فائقة لا تنقسم، وصار المخلوق مثل خالقه حسب المحبة، وليس حسب الجوهر، وصار محبوباً بذات المحبة الواحدة للثالوث.

٤- حسب جوهر اللاهوت، الثالوث مساوي، ومساواة كل أُقنوم هي مساواة في الطبيعة. وحسب تمايز الأقانيم، كل أُقنوم متمايز، والتمايز لا يعني بالمرة الأعظم والأكبر، الأول والآخِر؛ لأن تمايز الأقانيم هو ينبوع النعمة الفائق، وكما يحفظ الثالوث تمايز الأقانيم بسبب وحدة الجوهر، يحفظ الثالوث تمايز البشر عن أقانيم اللاهوت بسبب غاية النعمة ووحدة المحبة؛ لأن غاية النعمة أن ننمو، وغاية وحدة المحبة أن نكون مثل يسوع «البكر».

ونحن ننمو في النعمة، أي نتمجد حسب مجد يسوع المسيح، إذ نصير مثله كما صار هو مثلنا؛ لأنه هو أخذ الذي لنا، أي الناسوت، وأعطانا الذي له، أي المجد والبنوة كما أُعلن لنا في ناسوته الذي نتحد به في الأسرار الإلهية الفائقة لا سيما سر الشكر؛ لأننا نأخذ جسده ودمه لكي نتمجد فيه، ونصبح معه جسداً واحداً. ولذلك أعود وأكرر أنه علينا أن نسأل لماذا؟ وليس كيف؟ وعندما نتحد بجسده، فإننا نصبح معه جسداً واحداً، وكثرة المؤمنين هي قوة الوحدة؛ لأنها وحدة سمائية وليست وحدة أرضية. وحسب النظر لا يوجد بالمرة اثنان أو أكثر يصنعون جسداً واحداً، ولكن حسب النعمة الجسد الواحد لا تفصل بينه وبين أعضائه مسافة؛ لأن المسافة خاصة بقانون المنظورات كلها، أمَّا الوحدة بقوة وعمل الروح

القدس، فهي حسب قانون السمائيات والخليقة الجديدة، لذلك السبب كل واحد منّا هو عضو، ويبقى جسده كاملاً سليماً حتى في القيامة؛ لأننا رغم أننا أعضاء كثيرة، إلاَّ أننا أعضاء كاملة، أي إن أجسادنا لا تنقص ولا تُختصر إلى عضو في جسد الرب، بل تبقى أجسادنا كاملة؛ لأن شركتنا في المسيح هي شركة حسب الروح القدس، فهو الذي «يضم» الأعضاء ويوحِّدها بالرب لكي يصبح للأعضاء «جسد واحد» هو جسد المسيح.

هذه الوحدة ليست في طبيعة الأجساد، ولا تسهم فيها الأعضاء بشيء، بل هي عطية الروح القدس؛ لأنه لا توجد في الروح القدس مسافات وأحجام وأشكال، بل هو روح الرب الذي يجمع الكل رغم المسافات، ولذلك، ففي الليتورجية الإلهية نحن لا نأخذ قطعةً أو جزءً من جسد الرب، بل نأخذ الجسد والنفس واللاهوت في الرب الواحد غير المنقسم من بعد الاتحاد إلى اثنين: إنسان وإله، بل واحد حسب قوة اتحاده. ولأنه لا ينقسم، فهو يوزِّع حياته على المؤمنين، ويعطي جسده ودمه عطاءً كاملاً لكل متناوِل، ويوزِّع الجسد والدم بنفسه كما في علية صهيون.

٥- وكما ذكرت سابقاً، علينا أن نسأل لماذا؟ وليس كيف؟ لأن «لماذا؟» تُقدِّمنا إلى سر تدبير الخلاص. أمَّا «كيف؟»، فهي تجعلنا نقف أمام حقيقة السر الإلهي، سر محبة الرب لنا وهو قدس أقداس الإيمان الذي لا يدخله إلاَّ من تطهَّر عقله من التمسك بقوانين وخاصيّات الخليقة الأولى.

لماذا نأخذ الشركة في بنوة الابن الأزلي؟

لأننا خُلقنا من العدم، وكياننا ضعيف، وثباتنا في الشركة لا يدوم ويخضع لحركة الإرادة وقوتها، لذلك نخسر بسرعة كل ما أخذناه؛ لأننا في آدم سقطنا من رتبة سمائية، وهي صورة الله ومثاله، وجاء الرب وثبَّت لنا أركان الخلاص الأربعة:

أولاً: جعل الاتحاد هو غاية الخليقة الجديدة.

ثانياً: أعطى لنا شركة في التحوُّل الذي حدث في ناسوته.

ثالثاً: ثبَّت النعمة بعطية وسكنى الروح القدس، فلم يعُد خلاصنا نابعاً منَّا وصادراً بقوة الإرادة وخاضعاً لأهواء الفكر، بل ثابتاً بقوة النعمة حسب صلاح الله وليس حسب أعمالنا.

رابعاً: نقلنا من صورة الله ومثاله في آدم إلى صورة الله ومثاله الكاملة والغالبة لكل الأهواء، أي تلك الصورة الأصلية التي خُلِقَ آدم لينالها بتحوُّلٍ حقيقي إلى صورة الابن إذا ثبت في القداسة والشركة. ولمَّا فشل وسقط، جاء الابن ورَدَّ «آدم وبنيه إلى رتبته الأولى».

هذه هي أسباب عطية البنوة؛ لأننا نتحد بالابن المتجسد، فننال شركة مجد ناسوته التي صارت له وفيه بواسطة ميلاده ومعموديته وصلبه وقيامته وصعوده، وهي التحولات التامة في الطبيعة الإنسانية التي أخذها من العذراء، وهي الطبيعة التي صارت بدايتها ليس من العدم، بل من الروح القدس الرب المحيي، ومَسَحَ هذه الطبيعة في الأردن بقوة ونعمة الروح القدس، فنال المسحة لأجلنا لكي يحفظها فيه لنا، وغلب الموت على الصليب، وظفر بالفساد في القبر، وداس الهاوية ببرق لاهوته (١) وقام حياً معطياً الخلود لكل الطبيعة الإنسانية: الجسد والنفس؛ لأن الموت الذي فصل النفس عن الجسد، أباده الرب بقوة اتحاد جسده ونفسه الإنسانية بلاهوته، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب معلناً لنا غاية الوجود في المساكن النورانية «في بيت أبي منازل كثيرة» (يو ١٤: ٢).

هذا التحول الكبير جاء من الرب ويبقى في الرب؛ لأنه لا يخضع لإرادة آدم الأول، بل هو ثابت بإرادة آدم الجديد الرب يسوع المسيح مخلصنا الذي

---

(١) ينقل الأب صفرونيوس عن التسليم الأُرثوذكسي غلبة الرب للهاوية أو الجحيم. راجع تسابيح عيد القيامة لا سيما ذكصولوجية عيد القيامة وصلوات القسمة.

فيه تم الاتحاد الكامل «بغير اختلاطٍ ولا امتزاجٍ ولا تغيير»، فحفظ بذلك تمايز الطبيعتين وجعلهما واحداً فيه دون أن يقوى الموت على فصل اللاهوت عن الناسوت، ودون أن يغلب الضعف والفساد هذا الاتحاد، بل غلب هذا الاتحادُ الضعفَ والفساد. لذلك ونحن تابعون لسيرة وحياة الآباء الرسل ومعلمي الكنيسة وإيمانهم، نبحث في أسباب التدبير، ونقف على عتبة قدس أقداس الإيمان سائلين من الرب أن يطهِّر عقولنا من الاختلاط بالماديات لكي لا نقع في أخطاء وخطايا الهراطقة.

عطية التبني والشركة في الطبيعة الإلهية

٦- لا تشرح الخطيةُ النعمةَ، ولا تعلن الخطيةُ عطفَ الله وصلاحه؛ لأن الخطية – كما قال الإنجيلي – «هي التعدِّي» (١يو٣: ٤). والتعدِّي لا يحتوي على إعلانٍ عن طبيعة الله. وهكذا وقع الهراطقة جميعاً في هذا الفخ الشيطاني المنصوب لأولاد الله. فقد أنكر أريوس إلوهية الابن الوحيد؛ لأنه اكتفى بالشريعة وجحد نعمة الله. وأنكر مقدونيوس إلوهية الروح القدس؛ لأنه أحب مواهب وقوى الروح أكثر من محبته لله وأُقنوم الروح القدس. وأنكر نسطور الاتحاد؛ لأن الطبيعة الإنسانية حقيرة وضعيفة وقذرة ولا يليق بالله أن يتحد بما هو ضعيف ويجعله واحداً فيه.

وينسى كل هؤلاء أن أساس تدبير الخلاص «وعامود الحق وقاعدته»، أي الكنيسة حسب كلمات التقوى الرسولية (١تيمو٣: ١٥) هو الجسد الواحد لربنا يسوع المسيح «البكر بين أخوةٍ كثيرين». لكننا – حسب التقوى الأُرثوذكسية – نؤكد أن محبة الآب لابنه الوحيد المتجسد والمصلوب والحي إلى أبد الأبد لم تكن محبة لأُقنومه الإلهي دون الناسوت، بل محبة واحدة، صارت تشمل الناسوت.

كما لم ينقسم مجد الابن الوحيد إلى مجد إلهي، ومجد إنساني؛ لأن الإنسان بدون الله لا مجد له، بل هو فارغ وميت. ولم تنقسم حياة الابن المتجسد إلى حياة إلهية وأخرى إنسانية، بل حياة واحدة متجسدة؛ لأن الانقسام والانفصال الذي يحبه الهراطقة هو ما يجعل الابن – كإله – بعيد ومعزول عن الكنيسة جسده، ويجعل الكنيسة بلا رأس، بل جسداً ميتاً بلا قوة وبلا حياة.

هكذا نرى أن الهرطقات تبدأ بالخطية، وتنتهي عند ما تمليه الخطية من تعدي وموت وانفصال عن الله. ويحمل هؤلاء كل ما يأتي به الانفصال إلى النعمة، ويتصورون – حسب الخيال البشري، وليس حسب الإيمان – أن الله يشمئز من الإنسان ويتركه في حفرة الخطية والموت، وهي حفرة واحدة؛ لأن الرسول – فيما هو يشرح الخطية – استخدم في أكثر من موضع كلمة «الموت» مؤكِّداً على وحدة الخطية والموت «وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا ... أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا» (كو ٢: ١٣)، فأكَّد بذلك أن الغفران هو رد نعمة الحياة التي فقدناها بالخطية. وهكذا أيضاً – حسب الموت – الإنسان منفصل عن ينبوع الحياة، وحسب نعمة الله – الإنسان – حيٌ بالروح القدس في يسوع المسيح إلى الأبد.

٧– عندما نشرح الخلاص ابتداءً من الخطية، فأننا نسقط في ثلاثة أخطاء مميتة:

* نكتفي بحالة الإنسان الساقط التي نعرفها جيداً.

* نحدد مصير الإنسان بحالته الحاضرة، أي الموت.

* نجد حكم الشريعة واضحاً وصريحاً كما قال الرسول «أجرة الخطية هي موت» (رو٦: ٢٣)[٢]، وهو ما ينقل حكم الشريعة إلى تدبير الخلاص، أي نضع الخمر الجديدة في زقاقٍ قديمة، والرقعة الجديدة في الثوب القديم، رغم تحذير الرب لنا بالتلف الواضح، أي فقدان الغاية.

(٢) من الأخطاء الشائعة عندنا أن نظن إن الأجرة، أي الموت أعطاها الله، ولكن النص صريح لأن الترجمة القبطية تحدد ملكية الخطية للموت أي الأجرة "ⲛⲓ ⲟⲫⲱⲛⲓⲛ ⲅⲁⲣ ⲛ̀ⲧⲉ ⲫ̀ⲛⲟⲃⲓ ⲫⲙⲟⲩ ⲡⲉ".

يا أحبائي، لقد وضع الرسول تدبير الخلاص كأساس لإنجيل الحياة (بشارة الحياة). والمقارنة بين الرب يسوع آدم الجديد، وآدم القديم، هي مقارنة بين النعمة والحياة والصلاح، وبين السقوط والموت والدينونة. هي مقارنة تبدأ بالنعمة مؤكِّداً أنه حيث كثرت الخطية فاضت النعمة فيضاناً كثيراً، وإن الخطية ليست مثل النعمة.

٨- لا يشرح الموتُ الحياةَ؛ لأن الموت مثل الخطية، وهو حالة ما بعد السقوط التي نعرفها جيداً، ولا يؤكد الموت قوة النعمة أي نعمة الحياة الأبدية في ربنا يسوع المسيح. فقد دخل الموت إلى العالم، ومع الموت جاء الإفراط في محبتنا للجسد وما هو منظور. ومع الموت دخلت محتويات روحية فاسدة، وهي الانفصال والكراهية والعداوة، فقد كانت عداوتنا لله ظاهرة؛ لأننا نظن - بسبب استقلالنا وانفصالنا عن الله - أن الخلود والبقاء الأبدي هو في ما يمكن أن نحققه بقدراتنا، ولكن الخلود هو عطية. ونحن نكره الواهب والعاطي، ونظن أنه في قدراتنا أن «نختلس الإلوهة»؛ لأن آدم الأول حَسِبَ مساواته لله اختلاساً أو سرقة، وأراد أن يسرق المعرفة ويصير مثل الله (تك ٣: ٥)، لكن مَن هو مساوٍ للآب بالحقيقة وحسب الجوهر، جاء وصار في صورة العبد لكي يلاشي الكبرياء والعداوة التي زرعها آدم الأول.

يضع الموت ثلاثة عوائق أمام تقدُّمنا الروحي:

* يزرع فينا الوهم والظن بأن في قدرتنا أن نحيا إلى الأبد، لذلك نخاف الألم والمرض وضياع الممتلكات والمال.

* يجعلنا نفرط في محبة الجسد ظانين أن البقاء الحقيقي هو البقاء الجسدي، ونُصاب بالعمى، فلا ندرك أن الوجود الحقيقي هو الوجود حسب صورة الله ومثاله، وفي شركة مع الذي هو الحياة بالطبيعة ومانح الحياة لكل المخلوقات.

* نظن أن الخطية هي ظفر وسعادة وبقاء، بينما الخطية هي تعدي الطبيعة وحدودها التي خلقها الله.

لذلك – أيها الأحباء – تحدثت معكم في كل مناسبة عن هذا «الداء الخفي» الذي يحركنا للدفاع عن حياتنا ولو على حساب حياة الآخرين. ويخلق فينا هذا «الداء الخفي» الطمع والأنانية والحسد وسائر الرذائل الأخرى، وهي كلها ظنون الخلود المزيف الذي نطلبه دون انقطاع.

٩– لذلك جاء ابن الله الحي، وواهب الحياة الرب يسوع المسيح وأعطانا السلام مع الآب، وهدم ظنون الإنسان كلها، وأعلن أنه هو «القيامة والحياة»، وأسر الموت وحوَّل طبيعته من دمارٍ للحياة إلى دمارٍ للخطية؛ لأنه حوَّل هذا الداء الخفي في الصليب إلى قوة للتوبة، وجعل المعاناة والألم سببَ خلاصٍ، وصَلَبَ الطمع بالبذل، والأنانية بحمل الصليب، والحسد قتله بالمحبة، والزنا أباده بقداسة الشركة، وسكب حياته فينا حتى أن الإنجيلي صرخ من الدهشة وقال: «المولود من الله لا يخطئ» (١يو ٥: ١٨)، فأعلن حياة الرب فينا، تلك المولودة من الآب في الابن بقوة وعمل الروح القدس، وتُعطى لنا.

١٠– نحن نشترك في بنوة الابن على هذا النحو، وعلى قدر ما تحتمل الكلمات والمعاني الإنسانية:

أولاً: بميلاد الرب من العذراء مريم نقل الأصل الإنساني من العدم إلى الروح القدس مصدر حياة الخليقة.

ثانياً: بالمعمودية مسح الطبيعة الإنسانية وأعطانا مسحة الحق والقدوس، أي روح الحق المعزِّي، روح الابن وروح القداسة «الذي أقام يسوع من بين الأموات» (رو٨: ١١)، فنقل بذلك الطبيعة الإنسانية الجديدة من مشورة الفكر وقوة الإرادة وصراع البقاء بالحكمة إلى مشورة القداسة

والحياة وقوة الرب المحيي، وبذلك أعطاها الثبات الأبدي.

ثالثاً: أباد الموت على الصليب وأسره بموته، وسمَّره فينا بالصليب، فصار الموت الذي هو ثمرة الخطية، القوة التي تعمل فينا للتوبة والحياة، فنقل بذلك الموت إلى تدبير الخلاص، ولم يعُد الموت قوة انفصال النفس عن الجسد، بل قوة انفصال الإنسان كله عن الخطية. صار الموت هو موت يسوع وليس موت آدم الأول، وتحوَّل الموت إلى قوة خلاص شرحه الأب المحبوب والمُعلم الفاضل أرسانيوس في كتابه «الرب صَلب الموت بموته»، وهو أفضل ما عندنا من تعليم الشيوخ.

رابعاً: بقيامته المقدسة أعطى لنا الخلود، وغلب فساد الجسد، وسدَّ فم الهاوية، وأبطل الدينونة وقضاء الموت.

لنجمع معاً هذه الهبات الفائقة من الوجود حسب الطبيعة القديمة إلى الوجود حسب الخليقة الجديدة، فنرى عودتنا إلى الله بالروح القدس. ومن مشورة وفكر آدم إلى مشورة وعمل حكمة الروح القدس وبمواهب وعطايا الروح. ومن الحياة المغلقة تحت الدينونة إلى حياة عدم الموت والباذلة الجسد والروح في الصليب؛ لكي تتجلى بقوة قيامة الرب وسكنى الروح القدس.

خامساً: ما معنى كلمة الرسول «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف ٣: ١٧)؟

يحل الرب فينا؛ لأنه حلَّ أولاً في جسده الذي أخذه من العذراء، فصار بذلك بداية سكناه فينا. و«الحلول» بداية، و«السكنى» أبدية، ولا يجب أن ندخل معارك حول الألفاظ؛ لأن الذي يجمع الكلمتين معاً هو «الشركة»، والشركة تحدد لنا معاني الكلمات.

نحن نشترك في الرب حسب نعمته، وليس حسب رغباتنا أو قدراتنا.

ونعمة الرب أُعلنت في قبوله جسم بشريتنا قبولاً أبدياً؛ لكي يكون رأس الخليقة الجديدة الثابتة بقوة الروح القدس. وعندما نشترك في الرب حسب نعمته، لا تصبح إرادتنا هي سبب خلاصنا، ولا إرادة الرب أيضاً، بل اتحاد الإرادتين على مثال اتحاد الإرادتين في الابن الوحيد المتجسد، اتحاد حياة ومحبة وفكر يحفظ لنا حريتنا ويجددها على الدوام لكي تتجه نحو الحياة الأبدية.

حاجتنا إلى سُكنى المسيح فينا

١١- نحن لا نعبُد كما يعبُد الأمم، بل نخدم كما تخدم القوات السماوية. ونحن نخدم لكي نحيا كأبناء، لا لكي نعيش كعبيد يشتاقون إلى المكافأة؛ لأن المكافأة الوحيدة والجائزة هي أن ننال ما جاء الرب لأجله، وهو ليس شيئاً نحصل عليه بالأتعاب، بل ميراثنا هو الرب نفسه؛ لأننا سنملك معه عندما نصير مثله، ولن نملك شيئاً آخر غيره. وهذه هي كلمات الرسول: «وارثون مع المسيح»(٣) وماذا سنرث؟ «ورثة الله» (رو٨: ١٧). وعندما يقول الرسول إننا سوف نرث «ميراثاً لا يفنى ولا يتدنس» (١بط١: ٤)، فهو يشير إلى الله نفسه (٢بط١: ٣).

١٢- يوجد فرقٌ جوهريٌ بين المسيحية وإيمان الأمم، وهو أننا حسب بشارة الإنجيل لا نأخذ شيئاً ولا نرث عطيةً سماويةً أو أرضيةً غير الله نفسه. وعندما تستخدم الأسفار كلمات متعددة مثل «الحياة الأبدية»، و«ملكوت السموات»، و«ملكوت الله»، فهي تقدم نفس الهبة الإلهية الواحدة بعدة كلمات من أجل تنوُّع وتعدُّد فهم السامعين والقارئين معاً؛ لأن الحياة الأبدية هي في الله الأبدي، وشركتنا معه بواسطة المسيح هي شركة حياة أبدية، وملكوت

(٣) يعلق القديس يوحنا ذهبي الفم على رو ٨: ١٧ بقوله: "كيف يضيف بولس تدريجياً إلى عظمة النعمة؛ لأنه من الجائز أن يكون أيٌ منا ابن الله ولا يكون وارثاً ... ونحن لسنا فقط ورثة، بل "رفقاء في ميراث"، وشركاء مع المسيح" (عظة ١٤ على رومية).

السموات هو ملكوت الله حيث يملك الله، وحيث سنكون نحن ملوكاً.

أحذِّركم أيها الإخوة من أن تطلبوا شيئاً أو موهبةً أو عطيةً غير الله نفسه؛ لئلا تصبح العطية سبب سقوطٍ؛ لأن من يملك بدون الله يهلك، أمَّا من يملك مع الله وبواسطة الله، فهو يرث الحياة الأبدية.

١٣- نحن لا نُوهَب «شيئاً»، ولا ننال «صفةً»، ولا نشترك في صفات الله، فهذه كلها من دعاوى (ادعاءات) غريبة على بشارة الإنجيل؛ لأن الرب يسوع لم يقل: جئت لكي أعطي لكم صفات أو أشياء محسوسة أو غير محسوسة، بل «جئت لتكون لكم حياة وتكون هذه الحياة وافرةٌ جداً» (يو١٠: ١٠).

نحن نحيا أولاً، ولذلك قال الرسول بطرس: إننا شركاء الحياة الإلهية أو الطبيعة الإلهية (راجع ٢بط١: ٣)؛ لأننا لا نميِّز بين الحياة والطبيعة، فهذا هو تمييِّز اليونانيين (الفلسفة اليونانية)؛ لأننا عندما نقول إننا خُلِقنا على صورة الله، فالبشارةُ خاصةٌ بالأُقنوم (أو بالشخص)؛ لأن الخطية تحولنا من أشخاص (أقانيم) إلى أشياء. والشهوة تدعونا إلى نوال ما هو غير شخصي (غير متأقنم)؛ لكي ننمو به نحو شركة هي من خلق ظنون الفكر.

لكن الرب يسوع جاء متجسداً لكي يؤقنم الطبيعة البشرية ويرفعها من الفكر حسب الموت، والتصور الفاسد حسب ظنون الخطية إلى طبيعة متأقنمة بالمحبة. وحتى عندما نقول إننا «شركاء الطبيعة الإلهية» لأننا دُعينا حسب كلمات الرب «آلهة» (يو١٠:٣٤ - ٣٥)، فإن هذا لا يعني تحولاً في الطبيعة الإنسانية، بل تجديد الصورة الإلهية لتكون حسب صورة الله، ليس باكتساب صفات، بل بالمحبة التي تسود والتي ترفعنا إلى الحياة المتأقنمة التي يسود فيها الأُقنوم، ويستوعب الطبيعة حراً من قيود وحدود الطبيعة، متألِّهاً بالمحبة، حُراً بالمحبة التي تعرف البذل والعطاء ليس كقيد، بل حركة طبيعية حُرة نابعة من الشركة لا من

السيادة والتسلط؛ لأنه «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد» لكي يحيا العالم به (يو٣: ١٦)، حُراً بالبذل والشركة، وغير مقيدٍ بشريعةٍ أو وسطاء، وحُراً من عبودية الطبيعة التي سمَّاها الرسول ⲛⲓⲥ̀ⲧⲟⲓⲭⲓⲟⲛ[٤] أي المبادئ التي يقوم عليها العالم (كو ٢: ٢٠).

لقد تجسَّد الرب لكي يرد للجسد كرامته التي أفسدتها الخطية، ولكي يعيده بنعمة القيامة التي يستوعبها الجسد في المعمودية والميرون الإلهي، أي غرسنا في المسيح. وعندما يدرك القلبُ أن الجسدَ حيٌ إلى الأبد في المسيح، ونال نعمة القيامة، تُحوِّله تلك النعمة إلى جمال وحرية، ولا تجعله عبداً، بل يُستوعَب بالمحبة كقربان يُقدَّم إلى الله حاملاً في داخله صورة الله التي جُدِّدت في المسيح، أي الروح الإنسانية التي تتحول بدورها إلى قداسة الرب نفسه[٥] بعمل الروح القدس والسلوك حسب وصايا الإنجيل. وعندما تشرب النفس من ينبوع المحبة الإلهية، فإنها تنال تقديس المحبة الذي يجعلها سماويةً نقيةً في نقاءٍ على مثال نقاء عريس النفس الرب يسوع المسيح له المجد.

١٤– عندما يجحد الأممُ ربنا يسوع المسيح المخلص، ويجمعون الأدلة والبراهين العقلية على أنه مخلوقٌ وواحدٌ من الأنبياء، فإنهم في حقيقة الأمر قد قسَّموا ميراثهم إلى قسمين: **القسم الأول** مشترك بيننا وبينهم، وهو إنسانية الرب المساوي لنا في الناسوت حسب التدبير، **والقسم الثاني** وهو ما يعاندونه، وهو

(٤) ”إِذاً إِنْ كُنْتُمْ قَدْ مُتُّمْ مَعَ الْمَسِيحِ عَنْ أَرْكَانِ الْعَالَمِ، فَلِمَاذَا كَأَنَّكُمْ عَائِشُونَ فِي الْعَالَمِ، تُفْرَضُ عَلَيْكُمْ فَرَائِضُ“. أي مظاهر العالم والقيم التي يسلك بها العالم وينظم بها الحياة الإنسانية، ولذلك – حسب شرح القديس يوحنا ذهبي الفم – ”أنتم لستم من هذا العالم – كما يقول بولس – فكيف تخضعون إلى مظاهره ومبادئه؟ ألم تلاحظوا كيف يسخر الرسول من هذه المظاهر ويقول: ”لا تمس ولا تستعمل ولا تذق“ كما لو كان يقول لهؤلاء الذين يسلكون حسب هذه المبادئ: أنتم جبناء وتخافون من أمورٍ تظنون أنها عظيمة، ولكن هذه سوف تفنى بالاستعمال. وعلى الرغم من أنه يبدو كما لو كانت هذه التحريمات تحتوي على حكمة، إلاَّ أننا يجب أن نتركها تماماً. وحتى الذين يظهرون أنهم أتقياء ويسلكون بحشمةٍ ويقهرون الجسد ... هؤلاء يحتقرون الجسد – كما كتب بولس – ويقهرون الجسد تاركين الحرية، ولذلك لا يملكون الجسد بالإرادة، بل بالتحريمات (والطقوس الخارجية) على الرغم من أن الله أكرم الجسد“ (عظات على كولوسي مجلد ١٣: ٢٨٩).

(٥) راجع صلاة القداس الكيرلسي: ” طهِّر إنساننا الداخلي كطهر ابنك الوحيد ...“.

إلوهية الرب المساوي للآب حسب وحدة الجوهر الإلهي. وهم بذلك يفقدون القسمين معاً، ويتركون النصيب السماوي ويقعون تحت دينونة رفض الخلاص.

والقسم الأول – أيها الأحباء – لا قيمة له؛ لأنه لا ميراث للإنسان بدون الله، ولا أبدية له بدون الحي الأبدي، ولا حياة بدون مصدر الحياة الذي لا يقهره الموت، بل يقهر هو الموت. نحن لا نرث شيئاً من الأنبياء وكل البشر؛ لأن الطبيعة المخلوقة من العدم لا تملك ذاتها، بل يملكها الخالق وعليه تعتمد وبه توجد وتحيا وتتحرك (أع ١٧: ٢٨)، ولذلك لا يرث الأمم في مُلك المسيح شيئاً بدون الشركة في حياته وقبوله رباً ومخلصاً ورأساً جديداً للخلاص.

١٥– مَن يؤمن بالرب يسوع كإنسان فقط، هو في حقيقة الأمر لا يحتاج إلى إيمان؛ لأننا كبشر نعرف ما هو البشر، ولا نحتاج إلى الاعتراف به بشراً مثلنا. وحتى الاعتراف به كنبيٍ، لا يقدِّم لنا شيئاً، بل ينزع نعمة الإنجيل لكي يترك محلها الشريعة. هنا يجب أن نصرخ بكل ثقة، وبذات الإيمان الذي كرز به الرسل:
«لو كان الحق بالشريعة، إذن مات المسيح بلا سبب».
«ⲓⲥϫⲉ ⲅⲁⲣ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ⲫ̀ⲛⲟⲙⲟⲥ ⲡⲉ ϯⲙⲉⲑⲙⲏⲓ ϩⲁⲣⲁ ⲡⲭ̅ⲥ̅ ⲁϥⲙⲟⲩ ⲛ̀ϫⲓⲛϫⲏ».(غل ٢: ٢١).[٦]

(٦) لا تنزعج أيها القارئ من الترجمة القبطية للعهد الجديد؛ لأن الكلمات اليونانية للعهد الجديد كان لها معنى واضح في أذهان مسيحيي القرون الأولى، لاسيما في الفترة ما بين القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وعندما تُرجم العهد الجديد إلى اللاتينية تغيَّرت معاني الكلمات اليونانية، ثم تغيَّرت مرةً ثانيةً في الترجمات الأوروبية. وقد أدرك علماء العهد الجديد هذه الحقيقة التاريخية، فعادوا إلى النص اليوناني في بداية القرن السابع عشر، أي بعد ظهور حركة الإصلاح البروتستانتية بمائة سنة. أمَّا في الشرق فقد دخلت كل كلمات العهد الجديد ليتورجيات الكنائس الشرقية القبطية والسريانية والأرمينية واليونانية، ورسخت معاني هذه الكلمات في الصلوات إلى أن جاءت اللغة العربية التي تحمل مفردات قرآنية خاصة بالإسلام، وبعضها ليس غريباً على المحتويات العامة للعهد الجديد، وإن كانت أقرب إلى العهد القديم؛ لأن الشريعة في اليهودية والإسلام معاً هي المحور الأساسي للديانتين، بينما المحور الأساسي وقاعدة المسيحية الأولى هي المسيح نفسه.

وهكذا، عندما ترجمت أسفار العهد الجديد إلى اللغة العربية كان من الصعب تجنب الكلمات القرآنية، ولذلك دخلت كلمات قرآنية في النص العربي للعهد الجديد. من ضمن هذه المفردات كلمة ''البر'' وهي في كل سور القرآن خاصة بالإنسان، ولا تستخدم بالمرة لله، فلا يوصف الله – في القرآن – بأنه ''بار''، ولكن يوصف بأنه ''عادل''.

أمَّا في الترجمة القبطية، فالبر هو الحق ϯⲙⲉⲑⲙⲏⲓ والذي يسمع صلوات القداس يسمع الشعب وهو يقول

ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ϧⲉⲛ ⲟⲩⲙⲉⲑⲙⲏⲓ ⲁⲙⲏⲛ. ولأن الشريعة تحدد علاقة الله كخالق بالإنسان، صار العدل ضرورياً؛ لأن أحكام الشريعة تعطي لكل ذي حقٍ حقه. أمَّا في المسيحية، فإن علاقتنا بالله ليست فقط علاقة الخالق بالمخلوق، بل علاقة المخلص والفادي بأعضاء جسد ابنه الوحيد، فإن هذا يجعل كل تعليم عن الله له أساس واضح، وهو الخلاص، وهو قاعدة تفسير وشرح علاقتنا بالله كخالق. ولذلك السبب جاء النص القبطي ليقدم لنا المعنى الدقيق لكلمة ''بر – δικαιοσυνη''، وهو الحق والعدل، ولا يوجد تمييز بين الحق والعدل إذا اعتبرنا أن التعليم عن الخلاص هو الأساس الذي يجب أن يُبنى عليه كل تفسير لدور الشريعة.

هكذا يصبح معنى نص الرسول: ''لو كان بالشريعة حق''، والحق هنا هو الإعلان عن محبة الله، وهذا ظاهر من الأعداد ١٦: ٢١ من الإصحاح الثاني من رسالة غلاطية، وبشكل خاص عدد ١٩: ''لأني مت بالناموس لأحيا مع الله ⲫϯ ⲛⲉⲙ ⲛ̀ⲧⲁⲱⲛϧ''، وبعد ذلك يقول الرسول إن حياته في الجسد هي حياة الإيمان ''إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي، لست أبطِّل نعمة الله لأنه لو كان بالشريعة حق إذن مات المسيح بلا سبب''. والحق هنا هو حق المحبة، وعدل الفادي؛ ولذلك عندما نتحدث عن بر الله، فإن بر الله لا تقرره الشريعة، بل يقرره تعليم المسيحية عن الخلاص؛ لأننا يجب أن نضع أمام قلوبنا دائماً الحقائق التالية:

١– مات القدوس من أجل الخطاة.

٢– مات طوعياً، وبسبب من المحبة الواحدة للآب والابن والروح القدس.

٢– أعطى الموتى بالخطايا — ليس فقط — الغفران، بل الحياة الأبدية وميراث الملكوت وأحيانا مع ابنه وفي ابنه.

هذا يجعلنا نحس روحياً بأن الكلمات والمفردات – رغم أهميتها القصوى – يجب أن تُترجَم بدقة تُعلن عن تعليم المسيحية الشرقية عن الخلاص، وهو تعليم لا يحتوي على تناقض بين الحق والعدل والمحبة والقداسة والصلاح؛ لسببٍ واحد لا يمكن لمسيحي أن يتجاهله، وهو أن عقيدة الثالوث ليست الإيمان بثلاثة أقانيم يخضعون لطبيعة إلهية أو جوهر إلهي يحركهم ويقيِّد عملهم، بل حينما نقول :''ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة''، فإننا نقرر أن الأُقنوم هو الطبيعة، ولا توجد طبيعة فوق الأُقنوم وتسود على أقانيم الثالوث، بل لا سيادة بالمرة على أي شيء مهما كان لأنه لا يوجد مبدأ أو طبيعة تعلو على الله، فالله فوق كل الطبائع، ولذلك السبب ليس لدى الله حق أو عدل أو صلاح يخلق له صراعات وحيرة تجعله يلجأ إلى وسائل خارجية يعالج بها صراعه الداخلي. إن هذا ينطبق على الإنسان وحده لأنه يخضع لطبيعة تجعله يبذل جهداً (أحياناً مؤلماً) لكي يتفوق على الطبيعة: مثل البتولية وغفران الإساءة، بل ومحبة الأعداء. فقد دعانا المسيح إلى حياةٍ تعلو على الطبيعة الروحية والبيولوجية؛ لأنها مثل حياته التي قدمها قرباناً لأجلنا.

ولكي نتأكد من أن العدل هو الحق عند الله، وليس عند البشر، نكتفي بأن نذكِّر القارئ بعبارة الرسول: ''عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد'' (١ تيم ٣: ١٦)؛ لأن سر السلوك المقدس والحقيقي هو الإعلان العظيم الذي يدعونا لأن نتفوق على الطبيعة، أي تجسد ابن الله الذي وحَّد في أُقنومه الإلهي المتجسد السماء والأرض معاً.

ومن يريد أكثر البراهين وضوحاً على ما نقول عليه أن يُراجع تعليم الآباء عن عقيدة الثالوث، وبشكل خاص رسالة القديس باسيليوس إلى أمفليخوس حيث يظهر لنا أن التمييز الوحيد المقبول عقائدياً هو التمييز بين الأُقنوم والجوهر، وهو تمييز فكري لاهوتي دقيق لا يسمح لنا أن نُقسِّم الثالوث الواحد حسب الجوهر، بل نميِّز بين الآب والابن والروح القدس لتأكيد ثالوثية الأقانيم. أمَّا التمييز بين صفات العدل والمحبة والرحمة والحق، فهو تمييز غريب عن تعليم المسيحية دخل مع امتزاج اللاهوت بالفلسفة في العصر الوسيط. ومع أن الآباء في القرون الخمسة الأولى كانوا على وعيٍ تام بالفروق الكبرى بين اللاهوت المسيحي والفلسفة، إلاَّ أن هذا الوعي تداعى بعد ذلك في الغرب بعد مصالحة اللاهوت مع فلسفة أرسطو في كتابات توما الأكويني في «الخلاصة اللاهوتية»، ولكن لم يغب هذا الوعي بالمرة في التيار النسكي والمؤلفات الروحية في الغرب، بل ظل اللاهوت مسيحياً بعيداً عن تأثير الفلسفة في مؤلفات إيكهارت ونُسَّاك القرون ١٢: ١٤ لاسيما الذين اتبعوا مدرسة القديس فرانسيس الأسيزي.

أمَّا في الشرق فقد بدأت المحاولات الجادة لفصل اللاهوت عن الفلسفة اليونانية في مؤلفات سمعان اللاهوتي الجديد وغريغوريوس بالاماس، ولكن هذه المحاولات لم تنجح تماماً، إذ عاد اللاهوت الأرثوذكسي في مطلع القرن الثامن عشر

والقرن التاسع عشر إلى قبول النظام الفلسفي اللاهوتي الذي أبدعه العصر الوسيط حتى استيقظ علماء اللاهوت اليونان والروس في مطلع القرن العشرين، وبدأت مراجعة المؤلفات اللاهوتية للعودة إلى الوعي الآبائي والاحتفاظ بالصلاة والليتورجية والأسرار الكنسية لاسيما الإفخارستيا كدعامة لحياة مسيحية أرثوذكسية.

ولا يجب أن ننسى دور الذين كتبوا باللغة العربية في مصر وسوريا والعراق، فقد حفظ هؤلاء شعلة الإيمان وانشغلوا بالحوار اللاهوتي مع الإسلام ومع علماء المسلمين، وكان الدفاع عن التعليم المسيحي يتطلب من هؤلاء استعارة كل الأدوات الممكنة لشرح العقيدة المسيحية لاسيما التجسد والثالوث. وأمام استعارة الفكر الفلسفي اليوناني الذي دخل علم الكلام والفلسفة الإسلامية في المؤلفات الإسلامية، واستعارة النقد الفلسفي لهدم عقيدة الثالوث، وهو ما نراه في الرد على النصارى لعلي بن ربان الطبري، وأبو عيسى الوراق وغيرهم، ثم دفاع لاهوتيِّ الكنيسة السريانية وفي مقدمة هؤلاء يحي بن عُدي وغيره.

أمام هذا الجسر الهائل من الكتابات اليونانية والسريانية والقبطية والعربية بعد ذلك، لا نجد طريقاً واضحاً سوى العودة إلى المبادئ اللاهوتية الآبائية التي تحدد لنا بكل دقة كيف نشرح الإيمان الأرثوذكسي:

أولاً: بالتمييز الدقيق بين اللاهوت والفلسفة.

ثانياً: بالتمييز الدقيق بين المبادئ السائدة في الحضارات والثقافات المختلفة، وبين تعليم الإنجيل كما دوِّن في العهد الجديد.

ثالثاً: بعزل العناصر العقلية التي لا تخص شركتنا في الثالوث، وهي شركتنا في حياة الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح بنعمة وسكنى الروح القدس.

رابعاً: بالعودة إلى الأسرار والصلوات الليتورجية لكي نسمع دقات قلب وأنفاس جسد المسيح الحي الكنيسة الذي يدعونا للخدمة (العبادة).

هذه المحاور الأربعة تشكِّل المربع الكنسي الأرثوذكسي الذي يحفظ لنا في داخله الحياة المسيحية الأرثوذكسية.

وإذا رجعنا إلى الموضوع الأصلي، وهو التمييز بين صفات الله واستعمال صفة معينة لتسود على أعمال الثالوث مثل سيادة العدل على المحبة، أو الحق على الرحمة، أو غيرها، فإننا نعلم أن العلاقة بين الجوهر الإلهي وصفات الله له تاريخ قديم بدأ أولاً في الأريوسية ثم الأنومية، ونُقِلَ الصراع برمته إلى السُّنةِ والمعتزلة (في الإسلام)، ثم استقر بعد ذلك في اللاهوت الشرقي المسيحي العربي الذي انقطعت الصلة بينه وبين مؤلفات الآباء، والذي يعبِّر عنه ميمر العبد المملوك بكل فصاحة ودقة في تمييزه بين العدل والرحمة، وهو تمييز غريب عن المسيحية الشرقية والغربية معاً. هنا نكتفي بثلاث حقائق معلنة في الكتاب المقدس ودُوِّنت بكل دقة في كتابات الآباء:

أولاً: لم يعلن لنا الله شيئاً عن جوهره، بل كان الإعلان ولازال منذ ظهورات الله في العهد القديم عن الاسم والوعد والعهد وعن «وجه الله» فنوئيل، أي عن الأُقنوم. وعندما ترجم يهود الإسكندرية العهد القديم إلى اللغة اليونانية تحولت الكلمة العبرانية «فنوئيل» إلى *PROSOPON* هذا يعني أننا لا نجد إعلاناً عن موضوع عقلي اسمه الجوهر، بل إعلاناً عن شخص الله في أقانيم الثالوث.

ثانياً: لم يعلن لنا الابن ربنا يسوع المسيح شيئاً عن جوهر الله، بل أعلن عن الآب مقدِّماً إياه لنا على أنه هو أصل وهو جوهر اللاهوت، وبذلك لم يعد لدينا موضوع اسمه الجوهر، بل أُقنوم الآب.

ثالثاً: لم يسكن فينا جوهر اللاهوت، بل يسكن فينا أقنوم الروح القدس، وهو ليس صفة من صفات الله، بل هو الشخص أو الأُقنوم الثالث الذي يعطي لنا الاستنارة والحياة ويقودنا ويربينا في المسيح.

هذه الحقائق الثلاث تجعلنا نحصر كل ما يقال عن جوهر الله داخل شركة الأقانيم على النحو الذي قدَّمه القديس يوحنا: ''الذي كان من البدء (الأزل) الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا (التجسد الإلهي) من جهة كلمة الحياة (بشارة الإنجيل)''، وكلمة الحياة هنا ليست النطق أي الكلمة المسموعة أو المكتوبة؛ لأن القديس يوحنا يقول بعد ذلك: ''فإن الحياة أُظهرت''، والحياة ليست كلمة، بل الكلمة ''وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي

كانت عند الآب وأُظهرت لنا‘‘، وهنا نرى أُقنوم الآب والابن معاً في وحدة الحياة الأبدية، وهي شركة الأقانيم. وبعد ذلك يقول القديس يوحنا: ‘‘أُظهرت لنا‘‘ أي أُعطيت؛ لأن الحياة لا تُعطى بكلمة مهما كانت، ولذلك يقول: ‘‘لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا (الكنيسة)، أمّا شركتنا نحن (أي كنيسة الرسل)، فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح‘‘ (١يو ١: ٣)، وهي هنا شركة وحياة أبدية لا تخضع لأي تمييز عقلي فلسفي، بل تخضع للتمييز اللاهوتي الدقيق الذي تقدِّمه الشركة في حياة واحدة، هي حياة أبدية يظل فيها الثالوث هو الثالوث والبشر هم البشر؛ لأن الشركة تحفظ تماير واختلاف الله الثالوث عن الإنسان. وعندما نقول الشركة، فإننا نؤكد الشركة المعلنة، وليست الشركة التي تخضع لأهواء الإنسان، بل الشركة حسب «دعوة الله العليا في يسوع المسيح». وإذا كنا نشترك في حياة الله، فإن هذه الشركة محددة بالنعمة وليست خاضعة لإرادة الإنسان، بل لإرادة الثالوث؛ لأن إرادة الثالوث هي التي تحدد الشركة. وقوام الشركة هو النعمة، والنعمة أُعطيت حسب «ملء قامة المسيح»، أي حسب تجديد الطبيعة الإنسانية ليسوع المسيح نفسه الذي **وصل بالإنسانية فيه إلى الكمال الأبدي**، أي وصل ناسوته إلى كل كمال يمكن أن تناله الإنسانية. هذا، **تم فيه هو** أولاً؛ لأنه «البكر»، ويتم هذا فينا حتى يصل إلى الكمال في يوم القيامة عندما نلبس جسد المجد الذي لن تختلف طبيعته عن طبيعة جسد ربنا يسوع؛ لأنه — حسب عبارة الرسول: «سوف يغيِّرُ جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده، حسب استطاعته أن يخضع كل شيء» (فليبي ٣: ٢١). والترجمة العربية «صورة جسد مجده» أضعف بكثير من الأصل اليوناني؛ لأن كلمة صورة هي σύμμορφον أي ذات الصورة التي ننالها بسبب إضافة σύμ إلى كلمة μορφη فهي صورة المسيح نفسه، وهي هنا صورة جسد مجده الذي نأخذه أيضاً في الإفخارستيا. والتحول هنا هو بسبب شركة أقنوم الابن في طبعنا، فقد **حوَّلنا فيه** أي حوَّل الناسوت الخاص به ليكون هو بداية الجنس البشري الجديد، ولذلك يصبح الالتصاق بالمسيح، وهو التعبير الذي ورد في خدمة المعمودية في كل الكنائس الأرثوذكسية بعد جحد الشيطان. هذا يجعلنا نحدد شركتنا في المسيح على هذا النحو:

أولاً: شركة نعمة حسب دعوة الله.

ثانياً: هي شركة تحول لا يتم بإرادة الإنسان وحدها، بل بالالتصاق الشخصي بالمسيح؛ لأن ذلك هو أهم ما جاء في بشارة الإنجيل، وهو الالتصاق الشخصي بالمسيح، وعن طريق المسيح لأنه هو الوسيط الواحد (١تيمو٢: ٥)، والاسم الواحد الذي يجب به أن نخلص (أع ٤: ١٢). ومَن يقرأ صلوات القسمة المتنوعة التي حفظت لنا روح وتعليم الآباء يدرك أنه أمام المسيح نفسه الكائن على المذبح، ومعه الكنيسة كلها دون أن يكون بيننا وبينه وسيط آخر، وتصبح النعمة بذلك هي الشركة الحقيقية في حياة ابن الله.

ثالثاً: وتحول الإنسان لكي يكون مثل المسيح هو تعبير القديس يوحنا الإنجيلي: «أيها الأحباء نحن الآن أولاد الله»، و«الآن» تعني حقيقة تُختبر «ولم يظهر بعد ماذا سنكون»؛ لأننا لا نزال محاطين بضعف الجسد، ولم يتحول جسدنا إلى جسد القيامة، «ولكن نعلم أنه عندما يُظهر»، أي مجيء الرب يسوع «نكون مثله لأننا سنراه كما هو»، ويؤكد الرسول أن هذه العطية الفائقة ليست مجالاً لكبرياء وشموخ الروح، بل «وكل من عنده هذا الرجاء به يطهر نفسه كما هو طاهرٌ» (١يو٣: ١ – ٣). هنا نرى أن السلوك الأخلاقي المسيحي هو تحوُّل في كيان الإنسان يأخذ أصله وقوته واتجاهه وغايته ومصيره في المسيح وبالمسيح. والكلمات: أصل — قوة — اتجاه — غاية — مصير، وردت كلها في كتابات الآباء وفي العهد الجديد نفسه، ولكن المجال لا يسمح لنا بأن نناقشها هنا.

رابعاً: وإذا قلنا — حسب بشارة الإنجيل — إننا سنكون مثله، فهذا عائد إلى الشركة والحياة معاً؛ لأننا نولد في المعمودية من الماء والروح، وعلى مثال ميلاده من العذراء، أي بلا أب بيولوجي وبدون حبل بزرع بشر، بل بعمل كلمة الله والروح القدس، وبوساطة المسيح نفسه مصدر حياتنا الجديدة. وقد ذكر الآباء الكثير في هذا الصدد. ولكننا لن نكون مثل المسيح الابن الوحيد؛ لأن المصدر يظل المصدر وأزلية الابن الكلمة هي التي تسمح لنا بالشركة. وللمصدر اسم آخر في التعليم الرسولي هو «الرأس» الذي تنمو منه جميع الأعضاء (كولوسي٢: ١٩)، ولا تحوُّل بالمرة في أعضاء الجسد؛ إذ يظل الرأس هو الرأس الذي منه تأخذ جميع الأعضاء بدايتها وحياتها وحركتها ومكانها في الجسد.

خامساً: يظل كل هذا متماسكاً وموحَّداً وقائماً إلى الأبد بواسطة اللاهوت؛ لأن كل ملء اللاهوت حلَّ جسدياً في

المسيح يسوع مصدر حياتنا الجديدة

١٦– عندما جدَّد ابن الله ربنا يسوع المسيح الإنسانية الجديدة، حوَّلها من الموت إلى الحياة. صار هو الأول أو البكر أو البداية، فهذه كلها كلمات ذات دلالة واحدة تؤكد لنا أسبقية المسيح: هو «الأول»؛ لأنه آدم الجديد, وهو «البكر»؛ لأن له «أخوة كثيرين» (رو ٨: ٢٩) كما قال الرسول. وهو البداية؛ لأنه لا يوجد آخر غيره يملك أن يعطي بدايةً وحياةً جديدةً لمن ساد عليهم الموت.

والفرق بين آدم الأول، وآدم الأخير، ذكره الرسول في كلمة موجزة: «الإنسان الأول من الأرض»، وأيضاً «نفساً حيةً – ⲉⲩ ⲯⲩⲭⲏ ⲉⲥⲱⲛϧ‘‘، أمَّا آدم الأخير ⲡⲓϩⲁⲉ فهو روحٌ يعطي الحياة «ⲟⲩⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅ ⲉϥⲧⲁⲛϧⲟ» (١كور١٥: ٤٦)، وأضاف: «وكما لبسنا صورة ϩⲓⲕⲱⲛ (أيقونة) الأرضي، فنلبس صورة ϩⲓⲕⲱⲛ الذي من السماء (١كور ١٥: ٤٩)». هذه الصورة ϩⲓⲕⲱⲛ لا تُعطى لنا حسب مقاييس الأرضيات وحسب ’’الحس الآدمي‘‘ الذي فشل في استيعاب عطية صورة الله لنا، بل حسب المسيح. ونحن ’’نحس‘‘ بها في الأسرار، ونراها مرسومةً في وضوحٍ كامل في صلوات الليتورجية وتسابيح الكنيسة الجامعة الأرثوذكسية.

ويعني الرسول بـ ’’النفس الحية‘‘، الحياة الأرضية التي نشارك فيها الكائنات الأخرى، ولذلك إذا أغلقنا على أنفسنا الحياة الأرضية، تحوَّلنا إلى كائنات أرضية. وهذا معروفٌ لنا، أي الحياة حسب لذَّات الجسد، والخطايا التي تغلق

الابن المتجسد ومنه نحن أخذنا من ملئه (كولوسي٢: ٩ — يوحنا ١: ١٦). هذا الملء هو أولاً: قوة الحياة التي تجمع الكل، وثانياً: كنوز الحكمة والمعرفة (كو ٢: ٣) التي تحفظ وحدتنا بعضنا مع بعض ووحدتنا بالثالوث، وثالثاً: وهو الأهم إن بقاء كل عضو حي متألِّه بنعمة تحوُّله على صورة الابن «الذي سوف يغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده ...» (فليبي ٣: ٢١)، ومجد الرب هو إلوهيته، فلا مجد للناسوت بدون اللاهوت، ولذلك يقول الرسول: «ونحن ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغيِّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢كور ٣: ١٨). والوجه المكشوف حسب الأصل القبطي هو الوجه غير المغطى ⲟⲩⲟϩ ⲉϥϭⲱⲣⲡ أي إعلان ليس فيه غموض بالمرة.

علينا الحياة، وتحوَّلنا إلى كائنات أرضية ترضى بالحسد والغضب والقتل والزنا والكذب وسائر الخطايا التي تميت النفس أي الحياة الإنسانية؛ لأن موت النفس بالخطية ظاهرٌ لنا عندما ندرس انحلال القوى الروحية الداخلية، أي الإدراك وانقسام الفكر، أي قواه العاقلة، وهي الفهم والتصوُّر والذكاء. وتحوَّل هذه القوى تحت سيطرة اللذات إلى قوى متصارعة، تُضعف الإرادة وتفصل العقل عن الجسد، وأحياناً تحوِّل الجسد إلى أداة ومصدر تُحاول أن تُشبع منه النفس، رغم أنه هو جسدها وكيانها المنظور الذي لا يمكن فصله عن النفس.

ولعل أخطر مظاهر الموت الروحي هو جهل الإنسان بخالقه، وعدم قدرته على إدراك أنه يملأ الكل: السموات والأرض، وهو الجهل الذي يُعالَج في الحياة النسكية بالصلاة الدائمة، ومداومة الهذيذ في الكتب المقدسة، وخدمة الأخوة. وهكذا يَغلق الجهل على الإنسان، ويمنع عنه نور المعرفة الآتي من روح الحكمة، روح يسوع المسيح، أي الروح القدس. ولذلك — حسب الترتيب الرسولي — يبدأ ميلادنا الجديد بالاستنارة وإشراق المعرفة الإلهية، أي معرفة الخالق لكي تبدأ في إبادة الجهل.

الحياة الجديدة التي نأخذها من الرب يسوع المسيح

١٧- بسبب سيادة الموت علينا، كنَّا نحتاج إلى أن يأتي مَن هو «الحياة»، ومَن له قدرة الخلق؛ لكي يعطي الحياة مرةً ثانيةً، ويبيد الموت، الداء الخفي الذي هو أساس ومصدر التعدِّي (العصيان). وقد جاء إلينا ابن الله الحي، الأُقنوم الثاني، الكلمة والابن الوحيد الذي هو الحياة، والذي هو «الابن» حسب طبعه الإلهي، و«المساوي للآب في الجوهر»، والواحد في الثالوث القدوس.

وعندما نذكر هذه الألقاب والصفات، فإننا نؤكد قدرة الفادي والمخلِّص رب السموات والأرض الذي ظهر في شكلنا وحملنا فيه بالاتحاد بالطبيعة الإنسانية

الآدمية التي أخذها من والدة الإله القديسة الطاهرة مريم.

* هو الابن، ونحن بالطبيعة عبيد ورقيق في سلاسل الخطية.
* هو الكلمة، ونحن بالطبيعة نجهل الله ونحيا في ظلمة الجهل.
* هو مساوٍ للآب، ونحن لا نساوي الآب، بل ولا نساوي شيئاً؛ لأننا خُلِقنا من العدم، وليس لنا وجود واجب قادر على البقاء بقدراته المخلوقة.
* هو ابن الله، ونحن – كما قال الرسول – «كنا بالطبيعة أبناء الغضب» (أف ٢: ٣)، ولذلك جمع الابنُ كل هذه الصفات الإلهية في اسمه الخاص به «يسوع»، أي يهوه المخلص، وقد دُعيَ كذلك؛ لأنه جاء لكي يخلصنا من خطايانا المرة وعبوديتنا القاسية.

وعندما نقول: «الرب يسوع المسيح»، فإننا نجمع كل ما نؤمن به في هاتين الكلمتين.

نحن نأخذ الحياة الجديدة من الرب يسوع مباشرةً، وهذا ما تعلنه الأسرار السمائية. وإذا بدأنا بترتيب الآباء الرسل القديسين، فإننا في سر المعمودية ننتقل من العبودية لآدم الأول، أي من الطبيعة الآدمية إلى الطبيعة المدعوة لأن تكون أُقنوماً، أي تتكون من جديد، وحسب كلمات التقوى لرسول الرب يسوع المسيح «يتصوَّر المسيح» (غل٤: ١٩)، أي أن نصبح أيقونه ϩⲓⲕⲱⲛ أي شخصاً ϩⲏⲡⲟⲥⲧⲁⲥⲓⲥ بعد أن فشل آدم في أن يكون "صورة الله ϩⲓⲕⲱⲛ "، لذلك جاء الرب وأعاد خلقتنا على صورته، أي صورة اتحاد اللاهوت بالناسوت؛ لأنه أباد الموت بموته وجدَّدنا في أُقنومه، إذ جعل الناسوت أو الطبيعة الخاصة بنا، طبيعته الذاتية التي لا تحيا مستقلةً عن اللاهوت أو منفصلةً عنه حسب تعليم الهراطقة، بل متحدةً به حسب التسليم الرسولي الذي قبلناه من الرب ومن الرسل، وصاغه الآباء في المجامع المقدسة: نيقية وأفسس، تسليماً يؤكد خلاصنا في المسيح يسوع، ويؤكد الاتحاد، وما

كسبه الناسوت العاري من كل شيء، والذي لبس مجد اللاهوت وقوته وحياته وشركته مع الآب ومع الروح القدس. لذلك جاء الرب الابن الوحيد وبدأ بالتبني، وأكمل التدبير بميراث الملكوت بصعوده إلى السماء.

نحن لا نستطيع أن نحدد الحياة الجديدة؛ لأنها – كما قال الرسول – "ليست من هذه الخليقة" (عب ٩: ١١)، ليست من «لحم ودم ومشيئة إنسان» (يو ١: ١٣)، إنها من فوق، ولذلك يتعذَّر علينا أن نتحدث عنها بإفاضةٍ، كما نتحدث عن الأمور الأرضية، ولكن الرب يسوع معلِّم الحق؛ لأنه هو «الحق المتجسد»، أعلن لنا هذه الحياة في حياته الإلهية المتجسدة.

من اللاهوت أخذ الناسوت كل شيء، ومع أنه وُلِد من العذراء القديسة مريم إلهٌ حق وإنسانٌ حق، واحدٌ مع الآب حسب اللاهوت، وواحدٌ معنا حسب الناسوت، مساوٍ للآب حسب اللاهوت، ومساوٍ لنا حسب التدبير، إلاَّ أنه – حسب التدبير –جعل بداية حياته وبداية وجوده كإنسان، ليس من القانون الخاص بالخلق الأول أي الولادة الجسدانية حسب الجسد وثمرة الزواج، بل حسب الخلق الجديد الولادة الجسدانية حسب الروح القدس، ولذلك وُلِد من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم والدة الإله إنساناً كاملاً في كل شيء – ما عدا الخطية وحدها – بجسد ونفس عاقلة وإرادة ونطق وأعضاء جسدية كاملة لأنه آدم الجديد.

وعندما جمع اللاهوت والناسوت في أُقنومه الواحد، أي الإله الابن الوحيد المتأنِّس حسب التدبير، فقد أدخل لأول مرة في التاريخ اتحاد اللاهوت بالناسوت، وجعل الاتحاد بداية الجنس البشري الجديد، ولذلك صار ميراث الخليقة الجديدة اتحادنا بالله حسب تدبير التجسد، أي أن نبقى بشراً كما بقى ناسوت الابن، وأن نظل مخلوقين من آدم الأول كما خُلِقَ ناسوت الابن، ولكن بقوة خلق الثالوث التي تُعلَن في المعمودية التي نولد فيها ميلاداً روحياً

للنفس والجسد، وفيها ننال عربون قيامة الرب يسوع المسيح «متوقعين التبني فداء أجسادنا» (رو ٨: ٢٣)، ولذلك يقول الرسول «مولودين مرةً ثانيةً لا من زرع يفنى (زرع الرجل)، بل مما لا يفنى بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد (القدرة الخالقة)؛ لأن كل جسدٍ كعشب، وكل مجد إنسانٍ كزهر عشب، العشب يبس وزهره سقط. أمَّا كلمة الرب فتثبت إلى الأبد. وهذه هي الكلمة التي بُشِّرتم بها» (١بط١ :٢٣ - ٢٥).

وهكذا يجئ ميلادنا الثاني من فوق كما قال الرب يسوع لمعلم إسرائيل، ليس بالعودة إلى الولادة البيولوجية (حرفياً الطبيعية)، بل الولادة من الله، من القوة الخالقة التي لروح الحياة، الرب المحيي، الروح القدس الذي به نعتمد، وبه ننال ختوم الرب على أجسادنا، ختم الروح القدس في مسحة الميرون الإلهية على أعضاء الجسد التي هي أعضاء الروح الإنسانية؛ لأن كل عضو جسدي فينا، أصله في الروح أو في النفس، وهو يعبِّر عن الروح أو النفس، ويعلن حركتها وحياتها، ويُظهرها فينا؛ لأن الجسد هو الشكل المنظور ϩⲓⲕⲱⲛ ⲛⲁⲩ (الأيقونة المنظورة) للروح الإنسانية. وعدم ظهور بعض أعضاء الجسد عند المشوهين أو قطعها، لا يعني أن عضو الروح قد أُبيد، بل يظل أصله في الروح منتظراً كمال الخلق في يوم قيامتنا العامة الذي ننتظره بفرحٍ وصبر، ولذلك يبشرنا الرسول بهذه النعمة الآتية التي أسَّسها فينا، والتي سوف تُعلن في يوم مجيء الرب للدينونة "ألقوا رجائكم بالتمام على النعمة التي يؤتى بها إليكم عند استعلان يسوع المسيح" (١بط١: ١٣).

كان الأب زكريا يقبِّل جسده، وكان يقول لنا: «هذه عطية الرب يسوع الإله المتجسد»، وسار زمان غربته فرِحاً بهذه العطية فرحاً روحياً إلى أن رقد في الرب منتظراً معنا الإعلان الأخير لربنا يسوع المسيح الذي سوف يغيِّر شكل جسد تواضعنا لكي يكون على صورة جسد مجده» (راجع أف٣: ٢١).

الولادة الجديدة في سر المعمودية

١٨- لا يجب أن نخطئ في فهم كلمات الرسول بطرس؛ لأن كلمة الله الحية الباقية هي قوة الثالوث، وهي القوة العاقلة أي اللوغس ⲗⲟⲅⲟⲥ التي بها خلق الثالوث السموات والأرض، وعندما ندرك هذه القوة حسب كلمات الوحي المقدس، فإننا نسمع الأنبياء يقولون لنا: "قال الله ليكن ..." (تك١:٣، ٦). والله لا يتكلم لغةً معينةً؛ لأن إعلان الخلق يجب أن يُعطى لنا حسب إدراكنا، ولما جاء يوم العنصرة وتكلم الآباء الرسل بلغاتٍ متنوعةٍ، أعلن الروح القدس أنه لا توجد لدى الله لغة خاصة، وإنما لغة الروح القدس هي الحق، أي الابن. وتجسُّد الابن أعطى لنا حرية استخدام كل اللغات، مؤكداً لنا تجسُّدُه ما سوف يحدث يوم العنصرة؛ لأن الرسل بشَّروا حتى بلغة العرب وأهل اليونان وغيرهم، فقد جاء الحق بلا لغة وبلا كلمات لمن هو قادر على أن يدرك الحق بلا كلمات، أي برؤيا الروح القدس الذي يعطي لنا إدراك ما يراه الروح القدس حسب الله وما يعلو على الكلمات.

ولكن لأننا لا نزال في الجسد، فإن قوة النطق والإدراك فينا لا يمكن أن تدرِك أو تفهَم بدون كلمات؛ حتى يعلو «الحس الروحي» ويدخل مجال ⲉⲥⲕⲟⲡⲟⲥ الروح القدس، أي رؤية ما هو كائن، وما سيكون حسب إعلان الروح القدس. وعندما نرتل في الكنيسة تسبحة الشاروبيم "قدوس، قدوس، قدوس رب الصاباؤت"، فإن كل كنيسة ترتلها حسب لغتها، وما يوحِّد هذه اللغات ليس الحروف، وإنما قداسة الثالوث القدوس التي تعلو على الحروف والكلمات، وندركها من خلال نوالنا تقديس الروح القدس للجسد والروح، ونرتفع بهذه النعمة إلى تسبيح السمائيين.

ولذلك السبب نفسه - وهو حرية العبادة (الخدمة) حسب الروح القدس - لا نقول كلمات الرب في العشاء السري، فقد شكر، ولكن لم يسلِّم لنا

الرسل كلمات الشكر؛ لأن قوة السر ليس فيما نطق به الرب، بل فيما أعطاه؛ لأن عطاء الجسد والدم يعلو على كل كلمة ونطق، فنحن لسنا سحرةً نُعيد كلماتٍ معينةٍ لها قوة خاصة، بل نعبد ونخدم الثالوث حسب النعمة المعلَنة لنا. وكلمات السر :«شكر، وبارك، وقدَّس»، إنما هي ترتيب الإدراك حسب ترتيب روح الحياة، وليست حسب حدود ومعاني الكلمات؛ لأن الشكر والبركة خاصين برئيس الكهنة، والتقديس خاص بالروح القدس الذي يخدم أسرار الابن، ويأخذ مما له ويعطي الكنيسة (يو١٦: ١٤،١٥)، ويبقى هذا كله خدمة واحدة للثالوث القدوس.

١٩- لا تعلن الكلمات الحق، وإنما تشير إليه مثل علاماتٍ تحدد الطريق؛ لأن الحق هو أُقنوم الابن المتجسد. ولم يكن التجسد كلمات، بل صارت كلمات المتجسد علاماتٍ ورموزاً وإشاراتٍ للحق، أي لشخصه الإلهي المتجسد.

هذا فرقٌ كبير بين العهدين؛ لأن الوصايا العشر لم تعُد مكتوبةً على لوحي حجر أي كلمات منقوشة، بل صارت أساس الشريعة الجديدة، شريعة الحياة التي تُكتب بشركة تامة في حياة الابن وبنعمة الروح القدس خادم أسرار الابن، ومعلِن الثالوث، وقائد الخليقة نحو الآب. ولم يعُد القتل كما كان في العهد القديم «ذبحاً»، بل صار الروح القدس شفاءً لقلب الإنسان من الغضب الوالد الحقيقي للقتل الذي يتزوج المرأة الشريرة الكبرياء، وكلا الوالدين ينزعهما الروح القدس مطهِّراً القلب بتواضع المسيح، ومقدِّساً الفكر بمحبة الآب، ومثبِّتاً للنفس والجسد وكل قوى الإنسان في إعلانات وقوة حياة الدهر الآتي، وهو ما يقلع الكبرياء والغضب معاً.

هكذا صار الصراعُ، ليس بين الإنسان ولوحي الحجر اللذين نقش عليهما الناموس، بل صراع القلب نحو إدراك الحق بالتقديس وبالمحبة، ليس كحركةٍ عقليةٍ ذاتيةٍ نابعةٍ من الإنسان، بل كشركة في حياة الرب وموته المحيي وقيامته،

شركة أساسها الابن المتجسد، ومصدرها الآب، وقوتها وتقديسها واستمرارها في الروح القدس.

آدم الأخير ربنا يسوع المسيح

٢٠- عندما قال الرسول بولس إن آدم الأخير هو «الرب من السماء» (١ كور ١٥: ٤٧)، فقد وضع لنا أساس العهد الجديد كله، مؤكِّداً لنا أن الرب هو آدم أو هو «الإنسان الثاني»، وإنه هو «الرب»، وإنه «من السماء». هذا الحبْل المثلث الذي لا ينقطع (أم ٤: ١٢)، يؤكد الأساس الإنساني، أي تجسُّد الابن، والبناء الإلهي أي إلوهية الرب، والبنية السماوية التي أقامها الروح القدس[٧]؛ لأننا حسب تدبير الابن المعلن في الأسفار المقدسة، نؤكِّد أن الرب جاء إلينا حاملاً في كيانه (أُقنومه) هبة الحياة الأبدية، أي حياته الذاتية (الأقنومية) التي لا يمكن أن يصل إليها الموت، بل قهرت الموت على الصليب المكرم[٨].

كيف بنى الرب هذا البيت؟

لم يكن من هذه الخليقة التي لا تستطيع أن تعطي الحياة الأبدية؛ لأن ما جاء من العدم ونال وجوده من الله لا يملك البقاء الأبدي إلاَّ بإرادة الله، وإذا فقد حياته تعذَّر عليه أن يستردها. نحن نأكل لكي نحيا حياتنا الأرضية المؤقتة، ولكننا لا ننال حياةً أبديةً من الطعام أو غيره، ولذلك قال الرسول: «الجوف للأطعمة والأطعمة للجوف والله لن يحفظ هذه وتلك» (راجع ١ كور ٦: ١٣)؛ لأن كل شيء كما قال الرسول في موضع آخر للفناء حسب

(٧) حرفياً التكنولوجيا وهي كلمة يونانية قديمة τεχνολογία وردت عند أكليمنضس السكندري كاسم لشرح التعليم اللاهوتي المتكامل شرحاً منظماً حسب قواعد التقوى (المربي ١: ٩ مجلد ٨: ٣٤٨). وعند غريغوريوس النيصي (الرد على أنوميوس ١ مجلد ٥٤: ٣٣٧)، وعند القديس باسيليوس وتعني استخدام المهارة والذكاء في الشرح (الروح القدس ٣ مجلد ٣٢: ٧٦). وعند الآباء النسَّاك بمعنى «هندسة وبنية الروح القدس» بطرس الدمشقي – الفيلوكاليا – النص اليوناني ٤ عامود ١٠٦.

(٨) لم يغلب الربُ الموتَ بالقيامة، بل غلبه على الصليب؛ لأنه غلبه قبل موته. والقيامة أعطت الخلود وقيامة الجسد وحياة أبدية للجسد والروح.

الاستعمال. ولذلك يفنى الجسد الشكل المنظور للروح، ولكن الروح لا تفنى بقدراتنا ولا تبقى بقوة إرادتنا ولا حتى بالسلوك الفاضل، ولكنها تنال هبة الحياة الأبدية التي تحفظها وتقيم الشكل المنظور للروح قيامة مجيدة حسب تعليم الرب يسوع المسيح.

أساس البيت - إذن — ليس أرضياً يفنى حسب الاستعمال، بل يبقى إلى الأبد حسب قدرة الرب الذي وضع كل شيء تحت قدميه (١كور١٥: ٢٥، ٢٧ — أف١: ٢٢ — عب٢: ٨)، أي له السلطان المطلق على كل ما في السماء وعلى كل ما على الأرض، لكي يجمع الكل معاً تحت رأس واحد هو رأسه الإلهي ورئاسته الأبدية؛ لأنه ملك الدهور الذي لا يفنى.

الأساس السماوي هو مثل البنية؛ لأن الأساس هو الرب، وحجر الزاوية هو الرب، والصخرة هي الرب. وإذا نظرنا إلى تعليم الغنوصيين والموحِّدين، أدركنا أنهم بلا أساس، وبلا بيت، وبلا إعلان، ولا يملكون إلاَّ الشريعة التي تعطي لهم خيرات الأرض وحدها في الحياة الآتية؛ لأنهم لا يعرفون السماويات.

٢١- وعندما قال الرسول: «مبنيِّين على أساس الرسل والأنبياء»، فقد أشار إلى التعليم والكلمة النبوية «المصباح المنير»، ولكن الرب هو «روح النبوة»، والشهادة ليسوع المسيح ربنا هي غاية النبوات، ولذلك السبب جاء انقطاع الكلمة النبوية عن تعليم الغنوصيين؛ لأنهم لا يعرفون أشعياء ولا أرميا ولا باقي الأنبياء، ولكنهم يعرفون موسى واضع الشريعة، والذي استلم لوحي الحجر من الله نفسه كبداية للتعليم الذي يجب أن يقود إلى الكمال، أي إلى الملء الذي أعطاه مَن حلَّ فيه كل ملء اللاهوت جسدياً (كولوسي ٢: ٩)، أي الرب الذي «يملأ الكل في الكل» (أف١: ٢٣).

وعندما عاد هؤلاء إلى الشريعة، أعلنوا بشكلٍ غير مباشر رفضهم لوساطة الخالق نفسه الكلمة ابن الآب الوحيد. رفضٌ مصدره الجهل؛ لأن الشريعة لا

تقود إلى الله، وإنما تقود الإنسان نحو الضعف الروحي؛ لأنه يحاصر نفسه بما يفهمه من الشريعة عن الخير والشر، ويضع لذلك طقوساً صارت رباطات من حديد، ويغلق فكره على نفسه باحثاً عن الممنوع والمسموح لكي يطلب ما هو قادر على أن يقوم به، وعندما يتعثر ويسقط، يبحث عن طقوس تطهيرات كلها جسدانية، وكلها من هذه الخليقة التي تغسل الجسد وتطهِّره، وتترك القلب فارغاً بلا تطهير؛ لأن الاغتسالات لا تدخل إلى داخل القلب، وتبقى نظافة للجسد مع نجاسة الفكر والقلب.

لكننا نؤمن بأن الذي حلَّ فيه كل ملء اللاهوت جسدياً (كو٢: ٩)، جاء بكمال الشركة، وهي لا تقوم على خير الإنسان أو شره، بل على صلاح الثالوث ومحبته. **وعندما نقول إن الابن له المجد تجسَّد وصار بلا خطية وهو في الجسد، فإننا لا نؤكِّد فقط قداسة الرب يسوع، بل نؤكد أيضاً أن الخطية ليست هي سبب أو مصدر الخلاص، بل صلاح الله**؛ لأنه لم يأت لكي يرفع أحكام الناموس فقط، وذلك كما قال الرسول: «سمَّر الصك الذي كان ضدنا ورفعه من الوسط» (راجع كو ٢: ١٤)، بل لكي يؤكِّد لنا بموته وقيامته أن الخلاص هو عطية الله نناله بالإيمان وليس بأعمال الناموس لكي لا يفتخر أحد كما قال الرسول (راجع أف٢: ٩).

لقد جاء الرب لكي يؤكِّد لنا أن كمال الناموس هو بالمحبة، والمحبة لا تنفي ما هو قبلها، بل تكمِّل ما جاء من قبل، وتبني عليه البناء الجديد الذي من الله، لأن الله محبة (١يو ٤: ٨). والله هو غاية كل ما هو صالح، والشريعة صالحة؛ لأنها تُظهر تعدِّي الإنسان، لكن المحبة تفوق الشريعة؛ لأنها تعلن تجديد الذين يقعون تحت سلطان حكم الشريعة بما فيه الموت؛ لأن الرب مات من أجل الأثمة والفُجَّار، وعندما يقول النبي: «أُحصي مع أثمةٍ» (أش ٥٣: ١٢)، فقد كان يشير من طرفٍ خفي إلى تعدِّي الغنوصيين وإلى استهزاء هؤلاء بحكمة

الصليب، واعتبار المصلوب والصليب بلا قيمة، بل كما قال الرسول: «فضيحة وجهالة». وعندما قال الرسول إن «جهالة الله هي الحكمة التي تفوق حكمة العالم»، فقد أكَّد على عجز العالم - الذي يعبد القوة — عن أن يفهم حكمة الصليب، أي العطاء والبذل بلا مقابل ولمن لا يستحق.

٢٢- تتم الولادة الجديدة في المعمودية بقوة وعمل الروح القدس الذي وحَّدنا بالابن لكي ننال بالروح القدس شركة في بنوته. وعندما استخدمت الأسفار المقدسة تعبير الولادة الجديدة، فقد أكَّدت على نقطتين هامتين:

الأولى: هي أننا لا نلد أنفسنا، بل نُولد مثل الأطفال الذين لا يملكون القدرة على الولادة، بل هي قدرة الأم، وهي هنا الروح القدس الذي يلدنا في المسيح.

الثانية: لا يملك الإنسان أن يُعيد خلق كيانه، ولا أن يجدد نفسه، ولذلك نحن نولد لتجديدٍ أعدَّه الرب يسوع لنا، له بدايةٌ في تجسده، أي اتحاده بنا، وله استمراريةٌ في معموديته في الأردن عندما قَبِلَ لأجلنا مسحة الروح القدس، وله كمالٌ في إبادة الموت وإعلان الخلود وميراث الحياة الأبدية وقيامة الجسد. لذلك السبب علينا أن ننتبه لأن البناء الجديد الذي أعدَّه الرب بتجسده ومعموديته وصلبه وقيامته وصعوده، هو ذات البناء الذي يبنيه الرب لنا وفينا؛ لأننا نمر بذات مراحل البناء في «الإنسان الباطن»، فنحن نُوجد بالرب يسوع في أسرار الانضمام، ولكننا ننمو به متجهين نحوه؛ لأننا ننال المعمودية كأطفال، ولكننا نحتاج إلى الامتلاء ومسحة الروح القدس التي نأخذها في سر الميرون الإلهي، ولكنها تشتعل فينا بالصلاة والنسك وحفظ القلب، وكما قال القديس العظيم الأنبا أنطونيوس موصياً إيانا أن نطلب «الروح الناري» دائماً، وهو ما حرصت عليه الكنيسة الجامعة في صلاة الساعة الثالثة، وما نطلبه في كل الخدمات الإلهية لاسيما ليتورجية سر الشكر.

وحياتنا كمسيحيين أرثوذكسيين هي طلب وسعي للصلب كل يوم مع الرب؛ لأننا نُصلي معه لكي نقوم به وفيه، نُصلَب لكي لا نحيا حياةً جسدانيةً حسب قول الرسول: «مع المسيح صُلبت»، أي ماتت الحياة الجسدانية، وحسب الجسد نحن موتى؛ لأن موت الجسد ظاهرٌ في تقدُّم العمر والشيخوخة، ولكن الموت مع الرب هو موتٌ نسعى إليه بالإرادة وبالمحبة التي هي «رباط الكمال» (كولوسي٣: ١٤)؛ لأننا بالمحبة نذبح النية؛ لأن الأعظم يسود على الأقل، والأعظم هو المسيح، والأقل هو الدهر الحاضر الذي يعبر زمانه ولا يبقى.

٢٣- يحيا المسيح فينا على هذا النحو، وعلى قدر ما نملك من قدرة على التعبير:

أولاً: هو أساس حياتنا الجديدة الذي قد لا نراه؛ لأنه يختفي عن مجال عمل الحواس الخمس، لكي يترك لنا حريتنا؛ لأنه لا يقتحم حياتنا عنوةً، بل يقودنا برفقٍ وبشركة محبته نحو غاية الخلاص، وهي الشركة في الطبيعة الإلهية.

وعندما أقول (قد لا نراه) فذلك لأننا لا نسلك بالنظر وبالعيان، بل بالإيمان الذي به نحس بالرب، وأحياناً يُستعلن ابن الله فينا بشكل ظاهر، وهو أمرٌ لا يتكرر حتى في حياة القديسين، ولا ضرر من طلبه بشرط ألاَّ يصبح هذه هدفاً نسعى إليه حتى لا يقيِّد هذا الهدف محبتنا.

ثانياً: يغذِّي الربُ الإنسانَ الباطن بالكلمة وبالتعليم الذي نسمعه من المؤمنين، وبالمحبة التي نمارسها لكي ننمو روحياً نمواً من الله نحو الله، وهذا هو دور المعرفة الصحيحة الخالية من التعاليم الكاذبة؛ لأننا لا ننمو لكي ننال رضى الله، أو أن نجعله يحبنا أكثر، بل ننمو لأنه هو أحبنا أولاً (١يو ٤: ١٩)، حتى عندما كنَّا لا نحبه، وصالحنا كأعداء. ونحن لا نكسب ملكوت السموات بالأعمال الصالحة؛ لأن هذا ينفي تماماً محبة الله للإنسانية التي فداها وهي ساقطة.

ثالثاً: يعالج المسيح خطايانا بصبره الإلهي، وبصبر «من تألم مجرَّباً لكي يقدر أن يعين المجرَّبين أيضاً»، فهو يحتمل كل ضعفات وسقطات وخطايا الذين التصقوا به، ولذلك يقول الرسول إنه «لا يستحي أن يدعونا أخوةً» (عب٢ : ١١)، مؤكداً بذلك محبته الخاصة، حتى للخروف الضال والمفقود والمرتد؛ لأنه يسعى خلفنا لكي يعيدنا إلى حظيرة الخراف.

أخيرا

أسألكم أن تصلّوا معي لأجلي لكي يسكن المسيح فينا جميعاً؛ لأنه في اجتماعنا[٩] *synaxis* أمر الرب بالبركة كما يقول المزمور، فهناك يحضر الرب معلِّماً وشافياً حسب الإعلان الإلهي: ”إذا اجتمع اثنين أو ثلاثة باسمي، هناك أكون في وسطهم“؛ لأن اجتماع الرب بنا هو ينبوع الحياة الذي يتدفق منه بالروح القدس ويغسل كل ما فينا من دنس لكي يكون لنا نصيب القديسين. نعمة ربنا يسوع المسيح معكم. تحيةً في اسمه القدوس.

صلوا معاً؛ لأن صلاة الجماعة محبوبة لدى الثالوث الذي هو شركة المحبة الأزلية.

لا تطرحوا الضعفاء خارجاً لئلا تأتي علينا دينونة عظيمة؛ لأن عدم المغفرة مرذولٌ لدى الرب.

شدِّدوا الضعفاء بصلاح ومحبة؛ لأن الصلاح يشفي الكبرياء المستترة في القلب، أمَّا المحبة فهي توحِّدنا بالله.

لنطلب رحمة الرب دائماً، وليس فقط في الليتورجية؛ حتى لا نقع في وهم وكذب وغرور الاعتقاد بأننا صرنا صالحين.

---

(٩) كلمة لاهوتية هامة من الفعل اليوناني القبطي συντάσσομαί أي الانضمام أو الاجتماع بالغير لكي يكتمل اجتماع أعضاء جسد الرب الواحد أي الكنيسة، وهي البركة السرائرية الخاصة بسر المعمودية، سر الانضمام للرب في جسد واحد هو الكنيسة جسد المسيح. وهذه الكلمة بالذات synaxis تعود إلى الاعتراف بالإيمان بعد جحد الشيطان συντάσσομαί σαι χριστε ”أدخل أو ألتصق بخدمتك أيها المسيح“.

لنتمسك بالإقرار بالإيمان المستقيم (الأرثوذكسية)؛ لأنها طريق الحياة الواضح الذي سلك فيه الآباء الذين سبقونا وأثمروا ثمار الملكوت.

صلوا لأجلنا لكي ننال – حسب مواعيد الله – الحكمة الإنجيلية التي تجعلنا نقود سفينة حياتنا نحو ميناء الخلاص.

يسوع المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد، لا يزيد ولا ينقص،
ولا تنمو محبته بسبب محبتنا، بل محبتنا هي التي تنمو بسبب محبته.
الرب قريب منَّا، وأقرب إلينا من قلوبنا.
سلام ورحمة ربنا يسوع معكم.
صفرونيوس

✣